

## كَيْفَ تَخْتَارُ مِهْنَتَكَ؟

خَلَقَ اللَّهُ الْخَلْقَ مُخْتَلِفِينَ: فِي أَنْفُسِهِمْ، وَفِي قُدْرَاتِهِمْ، وَفِي أَعْمَالِهِمْ؛ لِتُسْتَقِيمَ الْحَيَاةُ، وَيَخْدِمَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا. قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَةَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُلْخِيًّا وَرَحْمَةُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾.

وَالرِّزْقُ يَخْتَلِفُ مِنْ بَيْتَةٍ إِلَى بَيْتَةٍ، وَهُوَ مُتَفَاوِتٌ بَيْنَ الْأَفْرَادِ. وَالبَشَرُ مُسَخَّرٌ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ؛ الْفَقِيرُ مُسَخَّرٌ لِلْغَنِيِّ، وَالْغَنِيُّ مُسَخَّرٌ لِلْفَقِيرِ... يَقُولُ الرَّسُولُ -ﷺ-: «اعْمَلُوا فَكُلُّ مُيَسَّرٍ لِمَا خُلِقَ لَهُ». وَلَوْ عَمِلَ النَّاسُ كُلُّهُمْ فِي مِهْنَةٍ وَاحِدَةٍ؛ لَتَغَطَّلَتْ بَقِيَّةُ مَصَالِحِهِمْ، وَلَكِنَّ اللَّهَ سَخَّرَ بَعْضَهُمْ لِبَعْضٍ؛ وَهَذَا يَأْتِي مِنَ اخْتِلَافِ الْمِهَنِ وَالْأَعْمَالِ؛ فَالْمُزَارَعُ، عَلَى سَبِيلِ الْمَثَالِ، يَحْرُثُ وَيَأْكُلُ مِنْ زَرْعِهِ غَيْرُهُ مِنْ خَبَازٍ، وَمُعَلِّمٍ، وَطَبِيبٍ... وَغَيْرِهِمْ، وَهَؤُلَاءِ بِدَوْرِهِمْ يَخْبِرُونَ لَهُ، وَيُعَلِّمُونَ أَطْفَالَهُ، وَيُعَالِجُونَ الْمَرِيضَ مِنْ أَسْرَتِهِ، وَهَكَذَا.

كَانَ الشَّبَابُ فِي الْمَاضِي يَتَعَلَّمُونَ مِهَنَ آبَائِهِمْ فِي الْغَالِبِ؛ حَتَّى إِذَا كَبُرُوا عَمِلُوا فِي هَذِهِ الْمِهَنِ؛ وَلِذَا كَانَ يَغْلِبُ عَلَى بَعْضِ الْأَسْرِ الْإِرْتِبَاطُ بِمِهْنَةٍ مُعَيَّنَةٍ، حَتَّى إِنْهُمْ قَدْ يُسَمَّوْنَ (يُعْرَفُونَ) بِهَا.

أَمَّا فِي الْعَصْرِ الْحَاضِرِ، فَقَدْ تَغَيَّرَ الْأَمْرُ، وَأَصْبَحَتْ أَغْلِبُ الْمِهَنِ وَالْأَعْمَالِ مُرْتَبِطَةً بِالْحُكُومَاتِ، أَوِ الشَّرَكَاتِ الْكَبِيرَةِ. وَيُوجِبُهُ الشَّبَابُ فِي أَوَّلِ حَيَاتِهِ مُشْكِلَةً اخْتِيَارِ الْمِهْنَةِ الَّتِي يَرْعُبُ فِيهَا، بَعْدَ انْتِهَائِهِ مِنَ الدَّرَاسَةِ. وَهَذَا قَرَارٌ صَعْبٌ، يَحْتَاجُ إِلَى تَفْكِيرٍ؛ لِأَنَّ لَهُ أَثَارَهُ الْمَادِّيَّةَ وَالنَّفْسِيَّةَ عَلَى الشَّبَابِ فِي مُسْتَقْبَلِ حَيَاتِهِ، فَكَيْفَ يَخْتَارُ الشَّبَابُ مِهْنَتَهُ؟

يَنْبَغِي أَنْ يَعْرِفَ الشَّبَابُ أَيْنَ يَضَعُ قَدَمَهُ، قَبْلَ أَنْ يَخْتَارَ لِنَفْسِهِ مِهْنَةً يَعْمَلُ فِيهَا، وَيَكْسِبَ عَيْشَهُ مِنْهَا. يَنْبَغِي أَنْ يَتَعَرَّفَ عَلَى صِفَاتِ نَفْسِهِ، وَمَا لَدَيْهِ مِنْ نَوَاحِي الْقُوَّةِ وَالضَّعْفِ، وَأَنْ يَتَأَكَّدَ مِنْ مَيُولِهِ، وَيَعْرِفَ مَا يُحِبُّ مِنَ الْمِهَنِ، وَمَا يَكْرَهُ. وَإِنْ صَدَّقَ الْإِنْسَانُ مَعَ نَفْسِهِ، يُعَيِّنُهُ كَثِيرًا عَلَى اخْتِيَارِ مِهْنَةِ الْمُسْتَقْبَلِ، وَهُوَ مُطْمَئِنٌّ إِلَى حُسْنِ الْاِخْتِيَارِ. وَبَعْدَ أَنْ يَتَعَرَّفَ الشَّبَابُ إِلَى نَفْسِهِ وَصِفَاتِهِ، يَنْبَغِي عَلَيْهِ أَنْ يَتَعَرَّفَ عَدَدًا مِنَ الْمِهَنِ؛ لِيَخْتَارَ مِنْهَا مَا يُنَاسِبُهُ. وَهَذَا أَمْرٌ لَيْسَ سَهْلًا، قَرَبًا لَا يَجِدُ الْمِهْنَةَ الَّتِي تَكُونُ مُنَاسِبَةً لَهُ وَلِقُدْرَاتِهِ، وَلَا سَعَادَاتِهِ، وَقَدْ يَجِدُ الْكَثِيرَ مِنَ الْمِهَنِ مُنَاسِبَةً لِمَيُولِهِ وَرَغَبَاتِهِ. لَكِي يَصِلَ الشَّبَابُ إِلَى قَرَارٍ سَلِيمٍ، يَجِبُ أَنْ يَكُونَ مَرْنًا، وَأَنْ يُدْرِكَ أَنَّهُ يَسْتَطِيعُ أَنْ يُثَبِّنَ مِهْنَةً مُعَيَّنَةً أَكْثَرَ مِنْ سِوَاهَا، وَأَنَّ هُنَاكَ مِهْنًا أُخْرَى لَا يَقْدِرُ عَلَى إِتْقَانِهَا.

يَحْتَاجُ الشَّبَابُ إِلَى التَّدْرِيبِ عَلَى الْمِهْنَةِ، الَّتِي يَفْتَقِدُ أَنَّهَا تُنَاسِبُهُ، وَإِلَى اكْتِسَابِ الْخَبْرَةِ فِيهَا، حَتَّى يَحْصُلَ عَلَى الْمَهَارَاتِ الْأَسَاسِيَّةِ، وَالْمَعْلُومَاتِ الْخَاصَّةِ بِهَا، بِطَرِيقَةٍ عَمَلِيَّةٍ، وَبِذَلِكَ يُعَدُّ نَفْسَهُ لِلْمِهْنَةِ إِعْدَادًا كَافِيًا. وَتَكْثُرُ الْمُنَافَسَةُ أحيانًا حَوْلَ بَعْضِ الْمِهَنِ دُونَ بَعْضِهَا الْآخَرِ. وَبَعْضُ الْمِهَنِ لَهَا بَرِيقٌ، غَيْرَ أَنَّ أَجْرَ الْعَامِلِينَ فِيهَا قَلِيلٌ، فَيجِبُ أَنْ يَكُونَ الشَّبَابُ عَلَى عِلْمٍ بِذَلِكَ، حِينَ يَخْتَارُ مِهْنَتَهُ، وَأَنْ يَعْرِفَ مِيزَاتِ الْمِهْنَةِ الْحَقِيقِيَّةَ. وَالشَّبَابُ الَّذِي يَعْرِفُ نَفْسَهُ حَقَّ الْمَعْرِفَةِ، وَيَعْرِفُ الْأَعْمَالَ الْمُخْتَلِفَةَ، يُصْبِحُ قَادِرًا عَلَى اخْتِيَارِ مَا يُنَاسِبُهُ مِنَ الْمِهَنِ، فَيجيءُ اخْتِيَارُهُ قَرِيبًا مِنَ الصَّوَابِ.

وَعَلَى كُلِّ شَابٍّ أَنْ يُدْرِكَ أَنَّ الصِّفَاتِ الشَّخْصِيَّةَ تَتَمَوُّ، وَأَنَّ الشَّبَابَ قَدْ يَتَغَيَّرُ فِي نَفْسِهِ، وَيَتَّبِعُ ذَلِكَ اخْتِلَافُ رَغَبَاتِهِ وَمَيُولِهِ، نَتِيجَةً لِحَبْرَةٍ جَدِيدَةٍ اكْتَسَبَهَا، أَوْ ثِقَافَةٍ حَصَلَ عَلَيْهَا، أَوْ مَعَاشِرَتِهِ أَنْاسًا لَمْ يُعَاشِرْهُمْ مِنْ قَبْلُ.

وَهَكَذَا نُدْرِكُ أَنَّ مِنَ الْخَيْرِ لِلشَّبَابِ فِي أَشْأِءِ دِرَاسَتِهِ أَنْ يَهْتَمُّ كَثِيرًا بِالدَّرْسِ وَالتَّحْصِيلِ، قَبْلَ أَنْ يَصِلَ إِلَى مَرَحَلَةِ اخْتِيَارِ الْمِهْنَةِ، وَأَنْ يَضَعَ لِنَفْسِهِ خُطَّةً مَرْنَةً، تَسْمَحُ لَهُ بِالتَّغْيِيرِ وَالتَّصَرُّفِ، حَسَبَمَا يَكْتَسِبُ مِنْ خَبْرَةٍ وَعِلْمٍ.

(مَنْهَجُ وَزَارَةِ التَّرْبِيَةِ وَالتَّعْلِيمِ بِالْمَمْلَكَةِ الْعَرَبِيَّةِ السُّعُودِيَّةِ: بِتَصَرُّفٍ)

## قراءة موسعة

## بلالُ بن رباح رضي الله عنه

لبلالُ بن رباح - رضي الله عنه - مُؤَذِّنُ الرَّسُولِ ﷺ سِيرَةً مِنْ أَرْوَاعِ سَيْرِ النَّضَالِ فِي سَبِيلِ الْعَقِيدَةِ، وَقِصَّةٌ لَا يَمَلُّ الزَّمَانُ مِنْ تَرْدَادِهَا، وَلَا تَشْبَعُ الْأَذَانُ مِنْ سِحْرِ نَشِيدِهَا.

وُلِدَ بِلَالٌ فِي « السَّرَاةِ » قَبْلَ الْهِجْرَةِ بِنَحْوِ ثَلَاثٍ وَأَرْبَعِينَ سَنَةً، لِأَبٍ كَانَ يُدْعَى «رَبَاحاً»، أَمَّا أُمُّهُ فَكَانَتْ تُدْعَى « حَمَامَةً ».

نَشَأَ بِلَالٌ فِي أُمِّ الْقُرَى، وَكَانَ مَمْلُوكاً لِإِيْتَامٍ مِنْ بَنِي عَبْدِ الدَّارِ، أَوْصَى بِهِمْ أَبُوهُمْ إِلَى أُمِّيَّةَ بْنِ خَلْفٍ أَحَدِ رُؤُوسِ الْكُفْرِ.

وَلَمَّا أَشْرَقَتْ مَكَّةُ بِأَنْوَارِ الدِّينِ الْجَدِيدِ، وَهَتَفَ الرَّسُولُ ﷺ بِكَلِمَةِ التَّوْحِيدِ، كَانَ بِلَالٌ مِنَ السَّابِقِينَ الْأَوَّلِينَ إِلَى الْإِسْلَامِ؛ فَقَدْ أَسْلَمَ، وَلَمْ يَكُنْ عَلَى ظَهْرِ الْأَرْضِ مِنْ مُسْلِمٍ إِلَّا هُوَ وَنَفَرٌ مِنَ السَّابِقِينَ الْأَوَّلِينَ، مِنْهُمْ حَدِيجَةُ بِنْتُ خُوَيْلِدٍ أُمُّ الْمُؤْمِنِينَ، وَأَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ، وَعَلِيٌّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ، وَعَمَارُ بْنُ يَاسِرٍ، وَأُمُّهُ سُمَيَّةُ، وَصُهَيْبُ الرُّومِيُّ وَالْمِقْدَادُ بْنُ الْأَسْوَدِ.

لَقَدْ لَقِيَ بِلَالٌ مِنْ أَدَى الْمُشْرِكِينَ مَا لَمْ يَلْقَهُ سِوَاهُ، وَعَانَى مِنْ قَسَوَتِهِمْ، وَبَطْشِهِمْ، وَغِلْظِ قُلُوبِهِمْ، مَا لَمْ يُعَانِهِ غَيْرُهُ. وَصَبَرَ هُوَ وَمَنْ مَعَهُ مِنَ الْمُسْتَضْعَفِينَ عَلَى الْإِبْتِلَاءِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، كَمَا لَمْ يَصْبِرْ أَحَدٌ؛ فَلَقَدْ كَانَتْ لِأَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ، وَعَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ، عَصِيَّةٌ تَمْنَعُهُمَا، وَقَوْمٌ يَحْمُونَهُمَا، أَمَّا أَوْلِيَاكَ الْمُسْتَضْعَفُونَ مِنَ الْأَرْقَاءِ وَالْإِمَاءِ؛ فَقَدْ نَكَلَتْ بِهِمْ قُرَيْشٌ أَشَدَّ التَّنْكِيلِ... فَلَقَدْ أَرَادَتْ أَنْ تَجْعَلَهُمْ عِبْرَةً لِمَنْ تَحَدَّثُهُ نَفْسُهُ بِنَبَذِ آلِهَتِهِمْ، وَاتِّبَاعِ مُحَمَّدٍ. وَقَدْ تَصَدَّى لِتَغْذِيبِ هَؤُلَاءِ طَائِفَةٌ مِنْ أَغْلَظِ كُفَّارِ قُرَيْشٍ كِبِدَاءً، وَأَقْسَاهُمْ قَلْباً. فَلَقَدْ بَاءَ أَبُو جَهْلٍ - أَخْزَاهُ اللَّهُ - بِإِثْمِ « سُمَيَّةَ » فَوْقَفَ عَلَيْهَا يَسُبُّ وَيَرْفُثُ، ثُمَّ طَعَنَهَا بِرُمَحِهِ طَعْنَةً دَخَلَتْ مِنْ أَسْفَلِ بَطْنِهَا، وَخَرَجَتْ مِنْ ظَهْرِهَا. فَكَانَتْ أَوَّلَ شَهِيدَةٍ فِي الْإِسْلَامِ. وَأَمَّا الْآخَرُونَ مِنْ إِخْوَتِهَا فِي اللَّهِ، وَعَلَى رَأْسِهِمْ بِلَالُ بْنُ رَبَاحٍ، فَقَدْ أَطَالَتْ قُرَيْشٌ تَغْذِيبَهُمْ. كَانُوا إِذَا تَوَسَّطَتِ الشَّمْسُ كِبِدَ السَّمَاءِ، وَالتَّهَبَّتْ رِمَالُ مَكَّةَ بِالرَّمْضَاءِ، يَنْزِعُونَ عَنْهُمْ ثِيَابَهُمْ، وَيَلْبِسُونَهُمْ دُرُوعَ الْحَدِيدِ، وَيَصْهَرُونَهُمْ بِأَشِعَّةِ الشَّمْسِ الْمُتَقَدَّةِ، وَيُلْهَبُونَ ظُهُورَهُمْ بِالسَّيَاطِ، وَيَأْمُرُونَهُمْ بِأَنْ يَسُبُّوا مُحَمَّدًا. فَكَانُوا إِذَا اشْتَدَّ عَلَيْهِمُ التَّغْذِيبُ، وَعَجِزَتْ طَاقَتُهُمْ عَنْ

تَحْمِلُهُ، يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ فِيمَا يُرِيدُونَهُ مِنْهُمْ، وَقُلُوبُهُمْ مُطْمَئِنَّةٌ بِالْإِيمَانِ، إِلَّا بِلَالًا -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَأَرْضَاهُ- فَقَدْ كَانَتْ نَفْسُهُ تَهُونُ عَلَيْهِ فِي اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ.

وَكَانَ الَّذِي يَتَوَلَّى تَعْذِيبَهُ أُمِّيَّةٌ بَنُ خَلْفٍ وَزَبَانِيَّةٌ. لَقَدْ كَانُوا يُلْهَبُونَ ظَهْرَهُ بِالسَّيَاطِ؛ فَيَقُولُ أَحَدٌ أَحَدٌ، وَيُطَبِّقُونَ عَلَى صَدْرِهِ الصُّخُورَ؛ فَيُنَادِي أَحَدٌ.. أَحَدٌ.. وَيَسْتَدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّكَالِ؛ فَيَهْتَفُ أَحَدٌ أَحَدٌ.. كَانُوا يَحْمِلُونَهُ عَلَى ذِكْرِ اللَّاتِ وَالْعُزَّى؛ فَيَذْكُرُ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

وَيَقُولُونَ لَهُ: قُلْ كَمَا نَقُولُ. فَيَجِيبُهُمْ إِنَّ لِسَانِي لَا يُحْسِنُهُ.. فَيَزِيدُونَ فِي إِيْدَائِهِ، وَيَمْعِنُونَ فِي تَعْذِيبِهِ.

وَكَانَ الطَّاغِيَةُ الْجَبَّارُ أُمِّيَّةٌ بَنُ خَلْفٍ، إِذَا مَلَ مِنْ تَعْذِيبِهِ، طَوَّقَ عُنُقَهُ بِحَبْلِ غَلِيظٍ، وَأَسْلَمَهُ إِلَى السُّفْهَاءِ وَالْوِلْدَانِ، وَأَمَرَهُمْ أَنْ يَطُوفُوا بِهِ فِي شِعَابِ مَكَّةَ، وَأَنْ يَجْرُوهُ فِي بَطْحَائِهَا. فَكَانَ بِلَالٌ -رِضْوَانُ اللَّهِ عَلَيْهِ- يَسْتَعْذِبُ الْعَذَابَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَيُرَدِّدُ عَلَى الدَّوَامِ نَشِيدَهُ الْعُلُويَّ: أَحَدٌ أَحَدٌ.. أَحَدٌ أَحَدٌ. فَلَا يَمَلُّ مِنْ تَرْدَادِهِ، وَلَا يَشْبَعُ مِنْ إِنْشَادِهِ.



وَقَدْ عَرَضَ أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- عَلَى أُمِّيَّةَ بَنِ خَلْفٍ أَنْ يَشْتَرِيَهُ مِنْهُ، فَأَعْلَى فِيهِ الشَّمَنُ، وَهُوَ يَظُنُّ أَنَّ أَبَا بَكْرٍ لَا يَأْخُذُهُ.. فَاشْتَرَاهُ مِنْهُ بِتِسْعِ أَوَاقٍ مِنَ الذَّهَبِ. فَقَالَ لَهُ أُمِّيَّةٌ بَعْدَ أَنْ تَمَّتِ الصَّفَقَةُ: لَوْ أَبَيْتَ أَخْذَهُ إِلَّا بِأَوْقِيَّةٍ لَبِعْتَهُ. فَقَالَ لَهُ الصِّدِّيقُ: لَوْ أَبَيْتَ بَيْعَهُ إِلَّا بِمِئَةِ لَاشْتَرَيْتَهُ.

وَلَمَّا أَذِنَ اللَّهُ لِنَبِيِّهِ ﷺ بِالْهَجْرَةِ إِلَى الْمَدِينَةِ، هَاجَرَ بِلَالٌ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- فِي جُمْلَةٍ مَنِ هَاجَرَ. وَاسْتَقَرَّ فِي يَثْرَبَ بَعِيداً عَنْ أَذَى قُرَيْشٍ، وَتَفَرَّغَ لِنَبِيِّهِ وَحَبِيبِهِ مُحَمَّدٍ، صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ، وَكَانَ يَغْدُو مَعَهُ إِذَا غَدَا، وَيَعُودُ مَعَهُ إِذَا عَادَ، وَيُصَلِّي مَعَهُ إِذَا صَلَّى، وَيَغْزُو مَعَهُ إِذَا غَزَا، حَتَّى أَصْبَحَ أَلْزَمَ لَهُ مِنْ ظِلِّهِ.

لَمَّا شَيَّدَ الرَّسُولُ ﷺ مَسْجِدَهُ فِي الْمَدِينَةِ، وَشَرَعَ الْأَذَانَ، كَانَ بِلَالٌ أَوَّلَ مُؤَدِّنٍ فِي الْإِسْلَامِ. وَكَانَ إِذَا فَرَغَ مِنَ الْأَذَانِ، وَقَفَ عَلَى بَابِ بَيْتِ الرَّسُولِ -عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ- وَقَالَ: حَيَّ عَلَى الصَّلَاةِ، حَيَّ عَلَى الْفَلَاحِ. فَإِذَا خَرَجَ الرَّسُولُ ﷺ مِنْ حُجْرَتِهِ وَرَأَاهُ بِلَالٌ مُقْبِلاً ابْتِدَاءً بِالإِقَامَةِ.

لَقَدْ شَهِدَ بِلَالٌ مَعَ نَبِيِّهِ « بَدْرًا »؛ فَرَأَى بِعَيْنِهِ، كَيْفَ أَنْجَزَ اللَّهُ وَعْدَهُ، وَنَصَرَ جُنْدَهُ، وَشَهِدَ

مَصْرَعِ الطُّغَاةِ، الَّذِينَ كَانُوا يُعَذِّبُونَهُ سُوءَ الْعَذَابِ. وَأَبْصَرَ أَبَا جَهْلٍ، وَأُمَيَّةَ بْنَ خَلْفٍ صَرِيعَيْنِ تَتَوَشَّهُمَا سُيُوفُ الْمُسْلِمِينَ، وَتَتَهَلُّ مِنْ دِمَائِهِمَا رِمَاحُ الْمُعَذِّبِينَ.

وَلَقَدْ ظَلَّ بِلَالٌ يُؤَدِّنُ لِلرَّسُولِ ﷺ طَوَالَ حَيَاتِهِ، وَظَلَّ الرَّسُولُ الْكَرِيمُ ﷺ يَأْنَسُ إِلَى هَذَا الصَّوْتِ، الَّذِي عُذِبَ فِي اللَّهِ أَشَدَّ الْعَذَابِ، وَهُوَ يُرَدِّدُ أَحَدًا.. أَحَدًا.

وَلَمَّا انْتَقَلَ الرَّسُولُ الْأَعْظَمُ ﷺ إِلَى الرَّفِيقِ الْأَعْلَى، وَحَانَ وَقْتُ الصَّلَاةِ، قَامَ بِلَالٌ يُؤَدِّنُ فِي النَّاسِ - وَالنَّبِيُّ الْكَرِيمُ مُسَجَّى لَمْ يُدْفَنْ بَعْدُ - فَلَمَّا وَصَلَ إِلَى قَوْلِهِ: «أَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ»، خَنَقَتْهُ الْعَبْرَاتُ، وَاحْتَبَسَ صَوْتُهُ فِي حَلْقِهِ، وَأَجْهَشَ الْمُسْلِمُونَ بِالْبُكَاءِ، وَأَغْرَقُوا فِي النَّحِيبِ. ثُمَّ أَدْنَى بَعْدَ ذَلِكَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ، فَكَانَ كُلُّمَا وَصَلَ إِلَى قَوْلِهِ: «أَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ» بَكَى وَأَبْكَى... عِنْدَ ذَلِكَ طَلَبَ مِنْ أَبِي بَكْرٍ خَلِيفَةَ رَسُولِ اللَّهِ، أَنْ يُعْفِيَهُ مِنَ الْأَذَانِ، بَعْدَ أَنْ أَصْبَحَ لَا يَحْتَمِلُهُ، وَاسْتَأْذَنَهُ فِي الْخُرُوجِ إِلَى الْجِهَادِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَالْمُرَابَطَةِ فِي بِلَادِ الشَّامِ. رَحَلَ بِلَالٌ عَنِ الْمَدِينَةِ الْمُنَوَّرَةِ مَعَ أَوَّلِ بَعْثٍ مِنْ بُعُوثِ الْمُسْلِمِينَ، وَأَقَامَ فِي «دَارِيَا» بِالْقُرْبِ مِنْ «دِمَشْقَ».

وَلَقَدْ ظَلَّ مُهْمِسِكًا عَنِ الْأَذَانِ، حَتَّى قَدِمَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ بِلَادَ الشَّامِ، فَلَقِيَ بِلَالًا - رَضَوَانِ اللَّهُ عَلَيْهِ - بَعْدَ غِيَابٍ طَوِيلٍ. وَكَانَ عُمَرُ شَدِيدَ الشَّوْقِ إِلَيْهِ، عَظِيمَ الْإِجْلَالِ لَهُ، حَتَّى إِنَّهُ كَانَ إِذَا ذَكَرَ الصَّدِيقَ أَمَامَهُ يَقُولُ: «أَبُو بَكْرٍ سَيِّدُنَا، وَهُوَ أَعْتَقَ سَيِّدَنَا» (يَعْنِي بِلَالًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ). وَهُنَاكَ عَزَمَ الصَّحَابَةُ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ - عَلَى بِلَالٍ أَنْ يُؤَدِّنَ فِي حَضْرَةِ الْفَارُوقِ، فَمَا إِنْ ارْتَفَعَ صَوْتُهُ بِالْأَذَانِ، حَتَّى بَكَى عُمَرُ، وَبَكَى مَعَهُ الصَّحَابَةُ، حَتَّى اخْضَلَّتِ اللَّحَى بِالْذُّمُوعِ. فَلَقَدْ أَهَاجَ بِلَالٌ أَشْوَاقَهُمْ إِلَى عُهْدِ الْمَدِينَةِ الْمُنَوَّرَةِ، سُقِيًا لَهَا مِنْ عُهْدِهِ.

وَلَقَدْ ظَلَّ دَاعِي السَّمَاءِ يُقِيمُ فِي مَنَاطِقَةِ «دِمَشْقَ» حَتَّى وَاثَاهُ الْأَجَلُ الْمَحْتَمُومُ؛ فَكَانَتْ أَمْرَاتُهُ تُعَوَّلُ إِلَى جَانِبِهِ فِي مَرَضِ الْمَوْتِ، وَتَصِيحُ قَائِلَةً: وَاحْزَنَاهُ... وَكَانَ هُوَ يَفْتَحُ عَيْنَيْهِ فِي كُلِّ مَرَّةٍ وَيَجِيبُهَا قَائِلًا: وَافْرَحَاهُ.. ثُمَّ لَفَظَ أَنْفَاسَهُ الْأَخِيرَةَ، وَهُوَ يُرَدِّدُ:

عَدَا نَلْقَى الْأَحِبَّةَ... مُحَمَّدًا وَصَحْبَهُ.

عَدَا نَلْقَى الْأَحِبَّةَ... مُحَمَّدًا وَصَحْبَهُ.

( صُورٌ مِنْ حَيَاةِ الصَّحَابَةِ لِعَبْدِ الرَّحْمَنِ رَأْفَتِ الْبَاشَا: بِتَصَرُّفٍ )